التلقي الأدبي في التراث من خلال الخطاب النقدي العربي المعاصر

- مقاربة في المنهج –

Literary reception in heritage through contemporary arab critical discourse -Approach in method-

نايت علي مهانه / طالب دكتوراه

أ.د عبد الغني بارة

قسم اللغة والأدب العربي-جامعة محمد لمين دباغين- سطيف 2- (الجزائر)

منهجية البحث في التراث النقدي العربي القديم

koutoubi@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2019/07/01 تاريخ القبول: 2019/09/07

ملخص:

قدّم الخطاب النقدي المعاصر العديد من المناهج والرؤى النقدية التي تناولت الظاهرة الأدبية من كل جوانبها، بداية من المؤلف والنص وصولا إلى القارئ، وقد واكب النقاد العرب المعاصرون هذه التوجهات النقدية في كل مراحلها تنظيرا وتطبيقا، ومن تلك التوجهات تلك النظريات المتجهة نحوالقارئ، سعيا منهم إلى نقل هذا المنتوج الفكري الغربي إلى البيئة العربية، دون الخوض في الأصول الحضارية المؤسسة له، فقرؤوا بها التراث النقدي والبلاغي آملين أنْ يجدوا صدى لهذه النظريات الغربية في النص التراثي، مما أوقعهم في العديد من الأخطاء المنهجية والمغالطات المعرفية التي لابد من تبيينها في هذه الدراسة المندرجة في مجال نقد النقد، انطلاقا من بعض الإشكاليات من قبيل؛ ما هي طبيعة النص التراثي؟ وما أوجه العلاقة بينه وبين القارئ المعاصر؟ وما هي شروط القراءة المنهجية لهذا التراث خاصة فيما تعلق بموضوع التلقي الأدبي في الخطاب النقدي والبلاغي العربي القديم؟

الكلمات المفتاحية: تراث- تلقي- نقد –قارئ – منهج .

Abstract:

The contemporary critical discourse has presented several approaches to critical methods and visions that have focused on the literary phenomenon in all its aspects, beginning with the author's text and going up to the reader. Contemporary Arab critics have followed and contributed to these critical approaches both in practice and theory, especially the theories

that are interested in the reader. And this is in order to adapt these Western concepts to the Arab environment without addressing the civilizational foundations of these theories. They submitted the critical and rhetorical heritage in the hope of finding an echo of these Western theories, which resulted in methodological and scientific errors. This is what our research tries to highlight by shedding the light on some issues, such as what is the nature of the heritage text? What relationship does heritage text have with the contemporary reader? What are the rules for the methodical reading of this heritage, particularly with regard to critical literary reception and discourse and classical Arab rhetoric?

Key words:: heritage - reception - criticism - reader- method.

تمهيد:

قدمت للمكتبة العربية العديد من المؤلفات النقدية والمقالات المتخصصة في مجال التلقي الأدبي في الخطاب النقدي والبلاغي القديم، وتوزعت بين دراسات نظرية وأخرى تطبيقية، وقد اخترنا جملة من المؤلفات الذائعة الصيت في هذا الصدد والتي كانت رائدة ومؤثرة في الساحة النقدية المعاصرة، والتي تدور في معظمها حول مظاهر التلقي الأدبي في النظرية النقدية والبلاغية التراثية، والتي تكشف عن منظور الناقد العربي المعاصر لنظريات القراءة والتلقي والتأويل الغربية، وطريقته في استنطاق هذا التراث في ضوء هذه النظريات أو المقولات الاصطلاحية المقدمة من الدرس النقدي الغربي في باب نظريات استجابة القارئ أو نظرية التلقي والقراءة. وسأحاول في هذا السياق عرض بعض المؤلفات المتخصصة في التلقي التراثي على الشروط المنهجية العلمية للكشف عن بعض أوجه العلاقة بين هذا الناقد والتراث، وهل استطاع الناقد وهو يكتب عنه أن يستوعب تلك العلاقة المتداخلة بين نسق التراث ونسق النظرية الغربية ونسقه هو كإنسان له نسقه الثقافي المضمر الذي يسير ذلك الجهد الفكري في الخلفية ، ولهذه المؤلفات أهمية قصوى لما لها من ريادة وسبق في هذا المجال من الدرس النقدي العربي المعاصر المندرج ضمن مجال نظرية التلقي، والذي سيؤثر بدوره لا محالة في أجيال قادمة من النقاد وهم يستنطقون مفاهيم القراءة والتأويل في التراث، باعتبارهم متوسطات قرائية كما يدعوها الدكتور جابر عصفور،"هذه المتوسطات قراءات سابقة [للتراث] وصلتها بالأنساق المعرفية للقارئ والمقروء التراثي صلة البعضية والسببية في آن، فتتحول هذه القراءات السابقة [لموضوع التلقي في التراث مثلا]، إلى موجهات قرائية، مضمنة، فتغدو علة أو سببا لتوجهات قرائية جديدة، فتؤدي دور الوسيط الذي يتوسط -على مستوى اللاشعور- ما بين القارئ [المعاصر] والمقروء [التراث]، مثلما تتوسط عدسات الرؤية ما بين العين وموضوعها، فتسهم في توجيه منظور العين أو تحديد بؤرة رؤيتها."[1]

يشير هذا النص إلى نقطة مهمة في طريقة التعامل مع التراث، وهي دور المؤلفات النقدية الحديثة في توجيه وتحديد القراءات النقدية التالية لها كمؤثر ومحدد لنسق القراءة ووجهتها في النظر نحو التراث، وهذا الذي أريد تبيين خطورته في هذا المقال، من خلال الوقوف على بعض الأخطاء المنهجية والتحيزات الفكرانية لهذه المؤلفات الحديثة وهي تستنطق مفهوم التلقي في التراث، بغية بيان أهمية الوعي بهذا العمل الحضاري الثقيل ألا وهو استطاق التراث ومساءلته.

1- الوعي المنهجي:

المنهج لغة: "من نَهَج يَنْهَجُ نَهْجاً ومِنْهَاجاً، أي طريقا واضحا، وجمعه نَهَجَاتٌ، ونُهُجٌ ونُهُوجٌ، والمِنْهاج كالمَنْهج، وفي التنزيل الحكيم:" لِكُلٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجَا". (المائدة/48) "[2]

المنهج اصطلاحا: " هو طريقة استعمال المعلومات المتوفرة استعمالا صحيحا في أسلوب علمي سليم، من خلال العرض والمناقشة الهادئة، والتزام الموضوعية التامة، وتأكيد القضايا المعروضة بالأمثلة والشواهد المقنعة دون إجحاف أو تحيز. "[3]

يعد التعامل مع التراث تعاملا نقديا مغامرة فكرية يحتاج صاحبها التسلح بوعي منهجي صارم ومحدد خشية الوقوع في الخلط المنهجي أو المغالطة المعرفية، ولذلك دأب الدارسون في هذا المجال (نقد النقد) على وضع مقدمات منهجية أولى لشرح طريقتهم في التناول أو التأكيد على منهج خاص في الدراسة، فالانحياز الفكري أو المنهجي ليس عيبا في حد ذاته، إنما الخطأ هو في عدم التحديد أو التأطير لذاك المنهج بداية من المقدمة، والتي تحوي الخطوط العريضة للكتاب.

يقول جابر عصفور عن هذه الإشكالية في الدرس النقدي المعاصر: " ولابد من الانتباه إلى المستوى النظري من القراءة ومحاولة التأسيس المعرفي لها سواء في تناولها نصوص التراث أو نصوص الحاضر، والقليل القليل من الدراسات المعاصرة الذي يدخل في دائرة القراءة ينصرف إلى الجوانب العلمية أو التطبيقية، دون أن ينشغل –في الأغلب- بتأصيل نظرية في القراءة، أو- على الأقل – تحديد المنطلقات الأصولية التي تصل القارئ بموضوعه المقروء في الوقت الذي تفصله عنه، والتي تمايز قراءة هذا القارئ (الناقد) وقراءة غيره، والتي تمكنه من السيطرة على موضوعه والتباعد عن شراك معطياته المباشرة أو مراوغاتها، وفي الوقت نفسه تمكنه من السيطرة على حركة وعيه بهذه المعطيات والكشف عن ما وراءها من العلاقات التي تنظمها. "[4]

في كتابه "التلقي في النقد العربي-في القرن الرابع الهجري-" ينطلق الناقد مراد حسن فطوم في مقدمته بالحديث عن نظرية التلقي الألمانية، ثم عن أهداف الكتاب الموزعة بين فهم النظرية الغربية ونظريتها العربية مع التركيز على المقارنة بين كلا النظريتين، دون الخوض في

تقديم منهجية واضحة عن طريقة تناول النصوص التراثية أو مقارنة الآليات أو الأنساق المعرفية التي أسست لهذه المعرفة التراثية.[5]

أما الدكتور محمود عباس عبد الواحد فيحاول في كتابه "قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي" تقديم دراسة مقارنة بين النظرة الغربية ونظريتها العربية في مجال التلقي الأدبي، دون الخوض في نقاط الاختلاف بينهما، بل التركيز دائما على البحث عن أوجه التشابه والالتقاء بينهما، وذلك بداية من المقدمة و حديثه عن التقاء نظرة أرسطو والجاحظ ثم الحديث عن دوافع المقارنة، التي يرجعها إلى ما وجده مبثوثا في تضاعيف النظرية الغربية من فكر لا مرجعية له إلا من رصيدنا النقدي، أي أصبح موروثنا النقدي هو الموروث الغربي، وأن كل الأفكار المسكوت عنها عندهم إنما هي من أصول عربية"[6] وهنا يمكن أن نستوقف الكاتب لنسأل عن مدى تأصيل هذه الرؤية الفريدة في النظر إلى علاقة موروث عربي بنتاج معرفي غربي معاصر، وما أصول هذه الدعوى الكبيرة وما مبررها؟

وفي حديثه عن الأصول المعرفية لنظرية التلقي الغربية وما يقابله من النظرة النقدية العربية، يرجع الكاتب أصول النظرية الغربية إلى الفلسفة بينما يرجعها عند العرب إلى عنصر واحد هو الشعر. فيقول "وهذا فيصل طبيعي بين أمة جعلت الفلسفة التجريدية غرامها الأول، وأمة عزفت بتكوينها النفسي والاجتماعي عن المنازع الفلسفية فكان الشعر فنهم الأوحد، وعلمهم الذي لم يكن لهم علم أصح منه.[10]" ولا أعلم لما هذه النظرة الدونية نحو تراث الأمة العربية الإسلامية؟ وهي التي انتجت تراثا فلسفيا وفكريا غني عن التعريف، كان له الأثر الكبير في الفلسفة الغربية والدرس النقدي القديم.

يحاول محمد المبارك في كتابه استقبال النص عند العرب في مقدمة الكتاب أن يبرز أهمية موضوع التلقي في الدرس النقدي القديم، مما جعله يبالغ في القضية حتى جعلها مركز اهتمام كل النقد القديم، في نوع من التماهي مع التوجه الغربي، ليعرج على نظرية التلقي وصداها في الدرس النقدي العربي المعاصر لينفي في هذا السياق تهمة التأثر الحاصل حول قضية التلقي[7]. دون أن يشير إلى منهجية واضحة أو محددة في التعامل مع التراث النقدي في موضوع التلقي، على الرغم من قلة الدراسات السابقة عنه زمنيا كما يصرح، إذ لم تمنعه جدة الموضوع وقلة المؤلفات فيه من التقعيد لمنهجية أو منهج واضح لاستقصاء هذا الموضوع في التراث.[8]

في دراسة تطبيقية عن حازم القرطاجني تحاول الكاتبة تسعديت فوراري في كتابها "المتلقي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء" الكشف عن مفهوم المتلقي ومظاهره وحضوره في هذا الكتاب التراثي الهام، مستندة في ذلك على مقدمات نظرية متناقضة أو ضعيفة، بداية من

تعميم القضية أي التلقي على كامل الكتاب ليصبح الكتاب كله كتابا عن التلقي كما تصرح في المقدمة، بالإضافة إلى بلوغ الادعاء نقطة تؤكد فيها "أن ما يتضمنه المنهاج من قضايا كثيرة لا تختلف كثيرا كما جاءت به النظريات الغربية الحديثة".[9] بالإضافة إلى النظرة التجزيئية للتراث من خلال فصل نظرة حازم القرطاجني عن كل ما سبقه من نظرات وكتابات ممهدة لمفهوم المحاكاة والتخييل وغير ذلك من مفاهيم هامة، بل الاكتفاء بما جاء في المنهاج وتلوين كل آراء الناقد بصبغة التلقي ولو على حساب مفاهيم نصية محايثة هي من صميم الأسلوب النصي والشعرية العربية.

2 – **بين الاختزالية و التعميمية**: تمثل هذه الصفة أو الطريقة في قراءة التراث أبرز إشكالية تواجهنا في تناول المتوسطات القرائية المعاصرة وهي إشكالية لا تتعلق بموضوع التلقي في التراث بل في معظم القضايا النقدية الحديثة والمعاصرة بداية من السياقية إلى النسقية.

إن هذه الطريقة المنهجية التي صار الناقد العربي المعاصر أسيرا لها والتي تدفعه من أقرب طريق إلى تعميم كل الموضوع قيد الدراسة على كامل التراث المدروس، أو على كامل المؤلف المخصوص بالقراءة، عبر منظومة معرفية مبسطة منطقيا وابستمولوجيا، تتأسس على مفاهيم مغلقة وجاهزة من قبيل المتلقي، القارئ الضمني، أفق الانتظار، و ذلك بمحاولة البحث عن مرادف لها في التراث، أو عن مقارب لها في النظرة ولو على حساب المفاهيم النقدية القديمة.
يقول مراد حسن فطوم:" وكان للمتلقي أهمية كبرى، لأنه غاية العمل الأدبي، وكان حاضرا في أثناء وضعهم القواعد التي توجه عمل الأديب وتنظم النصوص".[10] وهنا تأكيد من الكاتب على السلطة المطلقة التي يمتلكها المتلقي في التراث إبداعا ونقدا بوصفه الرقيب والمحدد الأساسي لكل الطرق الإبداعية والقواعد النقدية، مما يجعل الأمر أشبه بتعميم يختزل كل التراث النقدي والشعري في قضية واحدة هي قضية التلقي.

3 **فرض النظرة أو النظرية**: يمثل هذا الخلل المنهجي الصفة الطاغية على جل الأعمال النقدية المعاصرة اللاهثة نحو كل ما هو غربي، من خلال محاولة النقاد المعاصرين استقراء الأفكار والمفاهيم الغربية لفرضها على التراث إما منظورا أو نظرة أو نظرية بأكملها، وهذا الفرض أو الإسقاط يتم عبر العديد من الوسائل والآليات كالإقحام أو الادعاء أو حتى التزييف من أجل إيجاد بعض الروابط والعلاقات بين ما هو غربي وما هو عربي قديم، إما لإثارة الإعجاب بالتراث أو لتقريب الرؤى بين النسقين نحو غايات حداثية أو إيديولوجية مبطنة.

من المؤلفات النقدية الرائدة في هذا الموضوع أي التلقي كتاب فاطمة البريكي "قضية التلقي في النقد القديم" حيث نجد في تصدير الكتاب ما يلي: "نلاحظ أن الباحثة عاينت قضية التلقي في النقد القديم من منظور النقد الحديث، ومثل هذا المنهج قد يعرض الباحث لأخطار

القسر ولي عنق التراث النقدي لفلسفات ولأفكار نقدية لاحقة، مما يحمل المقولات أو الممارسات النقدية ما لا تحتمل".[11] وهذا الوعي المنهجي الإيجابي الذي نجده في التصدير لم يشفع للباحثة أن تقع في ذلك المحظور المنهجي، وهذا من بداية الكتاب أي في المقدمة التي بدأتها بالعتاب على النقاد القدامى لعدم وجود وعي نظري عندهم ، يسمح لهم بتطوير نظرية كما أقامها النقد الغربي، فتقول:" وفي تراثنا النقدي والبلاغي نصوص لا نستطيع أن نزعم وصولها إلى النضج الذي وصلت إليه هذه النظرية الحديثة، أو أن أصحابها يصدرون عن وعي مماثل...، وإن كانت تلك النصوص لا تشكل نظرية مكتملة في هذا الصدد، نتيجة عدم وضع الناقد ما يطرحه من أفكار في نسق واحد متكامل، مما أدى إلى عدم تطورها إلى نظرية نقدية".[12]

إن هذه الطريقة في مساءلة التراث تقوم أساسا على فرضية أولية هي البحث عن ما هو غربي في تراث عربي من أجل التقريب بينهما، وأي فشل في هذا المسعى ينتهي بإلقاء اللائمة على التراث القاصر عن تكوين نظرية بالمقارنة مع نظيره الغربي، هذا الغربي الذي أصبح في عصر ما بعد الحداثة ينادي بموت النظرية و رفض كل مشروع تنظيري يسعي إلى حصر الظاهرة في رؤية أو قالب نظري واحد، لهذا ينبغي أن يحاكم التراث بأدوات إنتاجه ولا يمكن أن يحاكم بأدوات هي من خارجه،إلا على سبيل المقارنة، كما لا يمكن البحث فيه عن أدوات وآليات أنتجها غيره.

في سعيه الفكري لإيجاد مقارب أو مرادف للتلقي يصرح الباحث مراد حسن فطوم بطريقة غير مباشرة عن محاولته لي أعناق النصوص النقدية التراثية من أجل إيجاد نظرية تلقي تراثية ولو على حساب النص التراثي، فيقول: "ولعل أهم العقبات التي وجدتها في أثناء البحث، هو قلة المادة النقدية التي تبحث عن نظرية التلقي في النقد العربي القديم بسبب خلوه من مفهوم نقدي مشابه اصطلاحيا، وهو ما دفعني إلى الاعتماد على المفاهيم النقدية المعروفة وقضاياها لمحاولة وصف الأفعال المشابهة لفعل التلقي واستنباطها من المقولات النقدية القديمة." [13] يمثل هذا التمحل في البحث ظاهرة نقدية نجدها كذلك عند شكري المبخوت الذي يقول في مقدمة كتابه "جمالية الألفة": "لهذا سعينا إلى تلقُّط تلك المادة الغفل من مظانها و وصلناها بنظرتهم إلى الكتابة عموما طامعين إلى الكشف عن النظام الخفي الذي يشد ما تفرق منها والأساس النظري الذي تقوم عليه."[14]وهذه اللهفة نحو كل ما هو نظرية سعي نحو لي أعناق النصوص و لو على حساب النص التراثي، و هذا ما أدركه الناقد محمود عباس عبد الواحد في كتابه "قراءة النص وجماليات التلقي" من خلال تقديم وعي منهجي عميق بالقضية، فلم يحاول أن يلبس التراث ما ليس فيه من نظرات تجريدية بقوله: "يتميز مفهوم التلقي أو جماليته في تراثنا النقدي عنه في حركات النقد الأجنبي في أنه لم يرتبط لدى رواده بنزعات فلسفية عامة على نحو ما كان معروفا في فلسفة النقد اليوناني، ومن ثم كانت فكرة

النقد العربي القديم بمنأى عن الكليات الفلسفية أو النظريات العامة التي يمكن أن تنظم مفهوم الاستقبال في فكرة جامعة أو حتى في خطين متوازيين. "[15]

إن أي محاولة لفرض آراء غربية على التراث النقدي يمثل تحطيما وتفكيكا له، بغية تحويله عن بيئته الأولى، لنقله نحو بيئات أو رؤى أخرى غريبة عنه، لتجعل منه كائنا ممسوخا ومنزوعا عن هويته وذلك لفرض هوية جديدة عنه، هي بالأساس هوية مناقضة أو محطمة للنص الأول كما يقول حبيب مونسي: "يعتبر راينر فارنينغ جمالية ياوس تأسيسا جديدا من وجهة تاريخية وتجاوزا نوعيا للتلقي التقليدي الذي يكرس المعايير السائدة المتحكمة في الإنتاج الأدبي وفي تلقيه على حد سواء، لأن التلقي عند ياوس يزعزع تلك القواعد ويسلبها سلطتها".[16] من هنا نفهم الاختلاف الجوهري بين الآراء النقدية القديمة في موضوع التلقي، ونظريتها الغربية، بداية من الاختلاف في أهمية المعايير النقدية وسلطتها في أي قراءة أدبية، بين من يؤمن بها ويسير على منوالها كشروط صارمة للقارئ المثالي ترفض كل قراءة خارجة عن المؤسسة و لو بدعوى التأويل الحر، وبين من يجعل كل قراءة معيار في حد ذاته يستحق أن يكون نموذجا أو عينة للحكم والفهم نحو أي نص مقروء، تحت شعار التأويل اللانهائي وحرية القراءة.

4-التبعية الثقافية بين الماضي و الآخر: يرتبط هذا العنصر بالبعد الحضاري لأي كتاب أو مؤلَّف، كونه أُنتج في بيئة وزمان معيّنين، تتسم الحضارة فيهما بالتقدم أحيانا وبالتخلف أحيانا أخرى، و ذلك لتسليط الضوء على ظاهرة ثقافية عامة لا تخص كتب النقد أو النقاد فقط، بل تعُمّ وتشمل كل واحد منا في الحياة، بداية من الفكر وانتهاء بالواقع الإجتماعي والسياسي المتأزم في حاضرنا، حيث تلخص هذه الظاهرة مقولة واحدة للعلامة عبد الرحمان بن خلدون: "المغلوب مولع بالغالب".[17]

إن القراءة الموضوعية التي ننشدها ونرجوها هي تلك القراءة الموضوعية التي تنتفي عنها التحيز، سواء كان هذا التحيز للتراث أو كان ضده، فالتحيز قرين الهوى النابع من قصور الوعي بجدلية العلاقة بين الماضي والحاضر، وبين التراث والمعاصرة، القراءة التي تؤدي بنا إلى محاكمة التراث من خلال مفاهيم لا يقبلها أو إلباسه مفاهيم مفارقة لطبيعته، ومعارضة لمنطقه الداخلي، ولا نعدم في النقاد المعاصرين مثلا من يقول عن عبد القاهر الجرجاني أنه ليس بلاغيا، أو أنه بنيوي سبق زمانه، أو غير ذلك من الأحكام المنحازة للوافد الثقافي الغربي على حساب المنطق الثقافي الداخلي للتراث.[18] و لهذا الولع الثقافي بالغالب الغربي من طرف المغلوب العربي آثار ومظاهر حتى في هذه المؤلفات المعدودة التي بصدد دراستها في هذا المقال، وذلك من خلال مظاهر التبعية الفكرية التي نجدها عند مفكرينا وهم يبحثون عن موضوع التلقي في التراث محملين لذلك بهذا الزخم المعرفي

الغربي بكل انجازاته العلمية والصناعية، والعمل على مقارنتها وتحكيمها بانجازات فكرية يرجع البعض منها إلى زهاء ألف عام، دون النظر إلى ذلك التراكم المعرفي الحاصل الممتد لقرون.

يورد لنا الباحث محمود عباس عبد الواحد بعض الآراء في تمهيد كتابه، من ذلك إصراره على أن نظرية التلقي الغربية لم تكن لتقوم لولا اعتمادها على آراء النقد العربي القديم ولو لم يصرح أصحابها بذلك، ولكن لم يدعم قوله هذا بأي حجة مقنعة تذكر، ويضيف في موضع آخر: "وهي مقارنة لا تشير بحال من الأحوال إلى قناعتنا بأن النظريات الغربية الحديثة في مفهوم التلقي قد وصلت إلى مستوى الأشباه والنظائر لما جاءت به قرائح هؤلاء الرواد في رصيدنا النقدي".[19] إن عقدة النقص التي يحس بها المفكر العربي تجاه النتاج الفكري الغربي، تجعله يتصرف عبر محورين إما الرضوخ والاستسلام أو المقاومة والرفض، وفي كلا الحالتين نحس بنوع من التغريب عنده بين ماضوية منغلقة تحاول الفكاك من الحداثة، أو اغتراب منسلخ لا يرى أي إيجابية في التراث، وهذا ما نعثر عليه عند الباحث مراد حسن فطوم، حيث يقول: "وقد دفعني ذلك إلى دراسة التلقي في النقد العربي القديم سعيا لمعرفة ما أضافه إلى أسس التلقي وما سبق فيه النظرية الحديثة"[20].

وفي نفس الصدد يقول محمد المبارك:" وقد أدخلنا الرأي النقدي العربي كلما وجدنا ذلك مساغا ومقبولا، وكلما عثرنا على آصرة تربط بين الرأي الحديث وآخر مشابه له كان للنقد العربي فضل السبق إليه."[21] من هذا المنطلق كان المبدأ المرسوم في نقد النقد القديم هو السير على خطى النقد الغربي المعاصر والبحث عن تقارب أو تشابه بينه وبين التراث النقدي، ليكون بذلك الموروث تابعا للفكر الغربي ولا يتمظهر إلا على ضوئه أو في صورته، فما وافق الغرب فهو المقدم والظاهر في الصدارة وما خالف نظرتهم فهو الذي ينتظر من يكشف الغطاء عنه فيبرز عبقريته دون استناد على نظرية أو مفهوم غربي مستحدث أو مستجلب إلينا .

تصور الكاتبة فاطمة البريكي مفهوم المتلقي عند النقاد القدامى بوصفه مفهوما سلبيا حيث تقول: "على الرغم من الاهتمام الكبير الذي أولاه النقاد والبلاغيون ومن قبلهم المبدعون للمتلقي، إلا أن هذا الاهتمام كان يدعم وجود المبدع أكثر من دعمه وجود المتلقي بوصفه شخصا مشاركا مشاركة فعلية في إنتاج معنى النص، أي أنه يدور في فلك الاهتمام السلبي."[22] و لكن من خلال الرجوع إلى فلسفة اللغة عند القدامى يتبين زيف هذا الرأي وهشاشته، بالنظر إلى عوامل عدة تؤكد بصفة لا تدعو للشك اهتمام هؤلاء النقاد بمتلقي الخطاب، لكنه اهتمام مؤسسس على فرضية التعاون والمشاركة في بلوغ مقصدية الخطاب بين المتحاورين، بين شروط الإفهام والإبانة عند المتكلم وشروط المعرفة والفهم عند المستمع.[23]

في نفس السياق يورد الدكتور محمد عبد المطلب من خلال كتابه "قضايا الحداثة في كتب الجرجاني" رأيا عن التراث النقدي وعلاقته بمفهوم المتلقي فيقول :"مقولة القارئ لم يتحدد لها وجود واضح في الدرس القديم، لأن القراءة الحقة تقتضي حركة معاكسة من القارئ للنص، وهو أمر لم يتحقق وجوده إلا في مقامات معينة."[24] و تمثل هذه النظرة الحديثة نحو المتلقي بوصفه محورا مشاركا في صياغة النص، نظرة معاصرة وجديدة عن كل تاريخ النقد العربي والغربي، وهي نظرة تعطي الأولوية لعنصر التأويل و الفهم كمركز أو محور لكل عملية قرائية، وكلما انتفى هذا المركز انتفى مفهوم التلقي وفاعلية المتلقي في مجمل الظاهرة الأدبية، وهذا الوعي الفكري بتاريخ النظرية الأدبية عموما لا نجده عند بعض النقاد العرب ، وهم يقرؤون النظرية المعاصرة بنوع من النقد والتمحيص وبرؤية تاريخية، حين نجد الناقد جين تومبكنز يقول على لسان هولاند نورمان: " إن الناس يتعاملون مع النصوص الأدبية بالطريقة نفسها التي يتعاملون بها مع تجارب الحياة، فكل شخص يطور أسلوبا معينا في التعامل يترك بصماته على سلوكه بما في ذلك أفعال التأويل النصي."[25] ، ويضيف في موضع آخر:" إن مسألة تموضع المعنى [بين كونه داخل النص أم هو من فعل القارئ] يبرز كمشكلة فقط عندما يفترض المرء أن تعيين المعنى هو هدف الفعل النقدي، إن هذا الافتراض لا يجمع ما بين الحركتين المتعارضتين [الشكلانية ونقد استجابة القارئ] بل يوحدهما معا في معارضتهما التاريخ المديد من التفكير النقدي الذي لم يكن فيه تعيين المعنى المهمة المركزية".[26] فالفرق بين النظرة القديمة والمعاصرة نحو فعل التلقي كفرق نوعي بين منظورين للنقد وليس فرقا تراتبيا بين نظرة سلبية وأخرى إيجابية، كما يصر بعض الباحثين العرب على تقديمه للقارئ العربي، والذين يصرون على ربط العلاقات وإسقاط الآراء على التراث النقدي دون الرجوع إلى خلفيات كل نظرة وكل منتوج حضاري، بل على النقيض من ذلك عبر البحث عن المشترك ولو على حساب النص كما صرحت بذلك تسعديت قوراري بقولها: "إدراك الأهمية الكبرى للمنهاج في البلاغة والنقد وما يتضمنه من قضايا كثيرة لا تختلف كثيرا كما جاءت به النظريات الغربية الحديثة."[27]

5- **إشكالات في المفهوم والمصطلح** :اخترت لبيان هذا العنصر من المقال مصطلحا من مصطلحات نظرية التلقي الألمانية ألا وهو مصطلح "القارئ الضمني" لصاحبه ولفغانغ إيزر، لإبراز ظاهرة الخلط بين المفاهيم المعاصرة والتراثية وطريقة تمثُّلِه في نصوص بعض النقاد العرب الذي بحثوا عن التلقي في التراث النقدي; بداية بالتعريف الذي قدّمه إيزر حيث يقول:" هو بنية نصية تتطلّع إلى حضور متلق ما، دون أن تحدده بالضرورة."[28] وهو أيضا "شبكة من البنيات التي تستدعي تجاوبا يلزم القارئ فهم النص."[29]

ومن خلال هذا التعريف يمكن أن نفهم أن للمصطلح مظهرين أساسيين ومترابطين هما:

- القارئ الضمني كبنية قبلية موجودة في النص.
- القارئ الضمني كحدث واقع مؤثر في البنية القبلية.

وبين بنية النص الموجودة بالقوة وبنيته المنتَجَة بالفعل يتراوح القارئ الضمني كوجود أولي نصي لغوي، يستدعي وجود قراء محتملين يجعلون من النص كيانا قابلا للإنقراء المحتمل، وللتوضيح أضيف تعريفا آخر مقدّم من طرف روبرت هولب نقلا عن إيزر في كتابه القارئ الضمني فيقول: " إن المصطلح يدمج كلا من عملية تشييد النص للمعنى المحتمل، وتحقيق هذا المعنى المحتمل من خلال عملية القراءة،"[30] فيؤكد إيزر إدماج المصطلح لعملية التأسيس للمعنى نصيا، وتحقق هذا المعنى من خلال عملية القراءة المحتملة بمختلف صور التأويل الممكنة.

بعد هذا العرض الموجز عن مفهوم المصطلح حسب ما قدمه صاحبه، فلنقارن ذلك بما تداوله بعض الباحثين العرب عن هذا المصطلح وكيف عرفوه في كتاباتهم المختلفة لنستعرض هذا الخلط المفاهيمي الحاصل عبر لَيِ أعناق النصوص التراثية لتناسب بعض المصطلحات الوافدة من قبيل هذا المصطلح ، لنبين في هذا الصدد خطورة المتوسطات القرائية التي أشرنا إليها سابقا في توجيه الرؤى النقدية لمن يأتي بعدها من دراسات في نفس الموضوع، لذا سأبدأ بالحديث عن أول منجز نقدي عربي تناول موضوع التلقي في الموروث النقدي بشكل مستقل ومتخصص ألا وهو كتاب جمالية الألفة لشكري المبخوت ونظرا لأسبقيته الزمنية نسبيا (1993) فإن له أثرا على من جاء بعده من كتابات نقدية في الموضوع.

يعرف شكري المبخوت المتلقي الضمني بقوله "تكشف ظاهرة التقبل –كما تصورها النقاد القدامى- أن المتقبل موجود على نحو من الأنحاء في النص، فهو يسهم في فرض البنية التي يجب أن يكون عليها القول ويندس في الخطاب إندساسا."[31] ، لم يكتف الباحث بادعاء المطابقة بين آراء القدامى في حضور المتلقي في النص بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين راح يلبس المصطلح أبعادا نقدية معيارية من قبيل الجودة والرداءة الشعرية بقوله:" يمسي بمقتضاه معيارا من معايير الجودة وبلوغ المحل الأسمى من الأدبية."[32] ، ثم نراه بعد صفحة من هذا القول يجعل القارئ الضمني رديفا لسلطة القارئ والأعراف الأدبية التي يفرضها فيقول:" لهذا ينتصب المتقبل الضمني ليحد من غلو المبدع مطالبا بحق القارئ الصريح في الفهم وليمثل الكابح لجماح المنشئ مذكرا بالضوابط والحدود."[33] ، ويضيف في موضع آخر: لقد نزل النقاد القدامى المتقبل الضمني منزلة المعيار في تحديد بلاغة الكلام".[34] ويعد هذا الخلط في مفهوم مصطلح رئيسي في النظرية أمرا خطيرا، نظرا لأهميته في رسم الملامح العامة للمنجز الفكري النظري، حيث تراوح المفهوم عند شكري المبحوث بين:

- البنية النصية.
- المعايير النقدية.
- سلطة القارئ.
- الأعراف الأدبية.

إن هذا التنويع المفهومي لمصطلح القارئ الضمني سنجد صداه عند كتاب آخرين أسّسوا فهمهم حول النظرية عبر منجز شكري المبخوت، نظرا لكونه وسيطا قرائيا مهما للباحث العربي في هذا الموضوع من الدرس النقدي، فنجد محمد المبارك من خلال كتابه "استقبال النص عند العرب" التالي زمنيا يعرِّف القارئ الضمني بقوله:" يحتوي النص على متلقي ضمني متضمن في النص، ويناسب وجوده النص زمانا ومكانا شكلا ومضمونا، فهو مجموعة السنن والأعراف الجمالية والفنية، التي تحضر في مخيلة الشاعر وقت الكتابة، والمتلقي الضمني يؤثر في إنتاج النص ويوجه بعض مساراته."[35]

يلاحظ في هذا التعريف المقدم النبرة الواثقة من صاحبها حين يصرح في تعريفه للقارئ الضمني كونه يمثل الأعراف الجمالية و الفنية عند العرب، مما يجعله قرين عمود الشعر و الذوق عندهم، وهو مستند في هذا على قراءات عربية سابقة له، قدمت له المفهوم فأثرت في تصوره، فرسمت له نوعا من القاعدة الفكرية للانطلاق في تقديمه للقارئ العربي على الرغم من وجود النسخة المترجمة لكتاب فعل القراءة منذ سنة 1994.

واصل هذا المفهوم الخاطئ مسيرته في الفكر النقدي العربي عبر بعض الإنتجات النقدية التي تناولناها حصرا في هذا المقال، لنستعرض تعريف تسعديت فوراري لمصطلح القارئ الضمني بقولها:" أحد مفاهيم نظرية التلقي الأساسية القارئ الضمني الذي يمثل مجموعة السنن والأعراف الجمالية والفنية".[36]

ويعرفه حسن فطوم بقوله :" وإنما كان حضوره –أي المتلقي- بمنزلة رقيب يقف خلف المبدع كالقارئ الضمني، يوجه كتاباته حسب توجهات المزاج الأدبي العام والخاص، فيؤدي به إلى الإجادة في عمله."[37]

خاتمة:

هذا نزر من فيض مما وقع فيه بعض النقاد والباحثين العرب من عثرات منهجية في تناولهم لقضية التلقي الأدبي في التراث النقدي، و الذي استطعنا من خلاله الخروج بالعديد من النتائج أهمها:

- يوقع قلة الوعي المنهجي لدى الباحث أثناء مجابهة نصوص تراثية مختلفة عنا فكريا وتاريخيا، ومتقفقة معنا في الآن ذاته هوياتيا في حبال الإنغلاق أحيانا، وفي نوازع التغريب أحيانا أخرى، وهو يواجه هذا الصرح التراثي بأدوات وآليات بل وبإيديولوجيات غريبة عنه في القيم والأهداف، مما يجعل المرء مدفوعا إلى كشف هذه الأخطاء المنهجية، ولو بشكل موجز قد يخل ببعض المسائل الضرورية في هذا الموضوع والتي لا يستطيع مقال واحد ذكرها ناهيك عن حصرها.
- للمؤلفات النقدية الحديثة الأولى دور خطير في توجيه وتحديد القراءات النقدية التالية لها كمؤثر ومحدد لنسق القراءة ووجهتها في النظر نحو التراث في أي قضية نقدية.
- يتوجب قبل البدء في تناول أي قضية فكرية في التراث تحديد المنطلقات الأصولية التي تصل القارئ بموضوعه المقروء في الوقت الذي تفصله عنه، والتي تمايز قراءة هذا القارئ (الناقد) وقراءة غيره، فتمكنه من السيطرة على موضوعه .
- يمثل تعميم كل الموضوع قيد الدراسة على كامل التراث المدروس ، أو على كامل المؤلف المخصوص بالقراءة و من ذلك موضوع التلقي ظاهرة فريدة في الخطاب النقدي المعاصر، ظاهرة تقوم على منظومة معرفية مبسطة منطقيا وابستمولوجيا، و على مفاهيم مغلقة وجاهزة يتم إسقاطها على النص التراثي .
- يحاول بعض النقاد المعاصرين استقراء الأفكار والمفاهيم الغربية لفرضها على التراث إما بفرض المنظور أو النظرة أو نالظرية بأكملها، وهذا الفرض أو الإسقاط يتم عبر العديد من الوسائل والآليات كالإقحام أو الادعاء أو حتى التزييف .
- إن القراءة الموضوعية التي ننشدها ونرجوها للتراث النقدي أو البلاغي هي تلك القراءة الموضوعية التي تنتفي عنها التحيز، سواء كان هذا التحيز للتراث أو كان ضده، القراءة التي لا تؤدي بنا إلى محاكمة التراث من خلال مفاهيم لا يقبلها أو إلباسه مفاهيم مفارقة لطبيعته التاريخية.
- يتوجب الانطلاق في تناول قضية التلقي الأدبي في التراث من الفرق بين النظرة القديمة والمعاصرة نحو فعل التلقي كفرق نوعي بين منظورين للنقد وليس فرقا تراتبيا بين نظرة سلبية وأخرى إيجابية، كما يصر بعض الباحثين العرب على تقديمه للقارئ العربي.
- قدم العديد من النقاد العرب المعاصرين مجموعة من المصطلحات و المفاهيم الغربية تقديما مشوها للقارئ العربي، مما يؤكد مرة أخرى على وجود أزمة مصطلح في

الخطاب النقدي العربي المعاصر ، و من ذلك ما قدم حول مصطلح القارئ الضمني لصاحبه ولفغانغ إيزر و ربطه ربطا اختزاليا بمفاهيم تراثية من قبيل عمود الشعر و الذوق.

هوامش:

[1]- جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، مؤسسسة عيبال للدراسات و النشر، قبرص ، ط1، 1991، ص 73.

[2]- ينظر ، ابن منظور: لسان العرب، تح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999 ج 14، ص 300،

[3]-عبد الوهاب سليمان: البحث العلمي و مصادر الدراسات الإسلامية، دار الشروق، جدة، العربية السعودية، ط1983،2،ص 147

[4]- ينظر، جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، ص 17.

[5]- ينظر، مراد حسن فطوم: التلقي في النقد العربي في القرن الرابع الهجري، منشورات الهيئة العامة السورسة للكتاب، دمشق، دط، 2013 ، ص 05-09.

[6] - ينظر: محمود عباس عبد الواحد: قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة و تراثنا النقدي ، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1996، ص 10-11.

[7]- ينظر: المرجع نفسه، ص 77.

[8]-ينظر: محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 1999، ص 09،11.

[9]- تسعديت فوراري، المتلقي في منهاج البلغاء و سراج الأدباء،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،دط، 2008 ، ص 05.

[10]-مراد حسن فطوم: التلقي في النقد العربي في القرن الرابع الهجري، ص 45.

[11]- فاطمة البريكي: قضية التلقي في النقد العربي القديم،دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 2006 ، ص 12.

[12]- المرجع نفسه ، ص 15.

[13]- مراد حسن فطوم: التلقي في النقد العربي في القرن الرابع الهجري ، ص 07.

[14]- شكري المبخوت: جمالية الألفة، المجمع التونسي للعلوم و الآداب و الفنون-بيت الحكمة،تونس،ط1، 1996، ص 09.

[15]- محمود عباس عبد الواحد: قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة و تراثنا النقدي ، ص 77.

[16]- حبيب مونسي: القراءة والحداثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط01، 2000، ص 265.

[17]- عبد الرحمان ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، تح:أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن، دط، دس، ص 77.

ط09، 2012، [18]- ينظر، نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة و آليات التأويل ،المركز الثقافي العربي، بيروت، ص 150-151.

[19]- محمود عباس عبد الواحد: قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة و تراثنا النقدي ، ص 11.

[20]- مراد حسن فطوم: التلقي في النقد العربي في القرن الرابع الهجري ، ص 07.

[21]- محمد المبارك: استقبال النص عند العرب، ص 11.

[22]- فاطمة البريكي: قضية التلقي في النقد العربي القديم، ص 88-89.

[23]- يقول جين تومبكنز في هذا الصدد: "الغرض من دراسة النصوص عند القدامى هو اكتساب المهارات التي تمكن المرء من استخدام اللغة كسلطة بنجاح، عكس الناقد المعاصر الذي يسعى لمناقشة معناها، لأننا بخلاف القدامى لا نماثل اللغة بالفعل ACTION، وإنما نماثلها بالتدليل SIGNIFICATION، لذا فإن هذين التصورين للإستجابة ينشآن من تصورين للغة يعارض أحدهما الآخر بصورة جذرية.(جين تومبكنز: قد استجابة القارئ من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية ، ص340)

[24]- محمد عبد المطلب: قضايا الحداثة في كتب الجرجاني، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط01، 1995، ص 234.

[25]- جين تومبكنز: نقد استجابة القارئ من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية ، تر: حسن ناظم-علي حاكم، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط1، 1999، ص 31.

[26]- المرجع نفسه، ص 338.

[27]- تسعديت فوراري: المتلقي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 05.

[28]- فولفغانغ إيزر: فعل القراءة، ترجمة: حميد لحمداني، منشورات مكتبة المناهل، فاس، المغرب، ط01، 1994، ص 30.

[29]- المرجع نفسه، ص 30.

[30]- روبرت هولب: نظرية التلقي مقدمة نقدية، تر: عز الدين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2000، ص 136.

[31]- شكري المبخوت: جمالية الألفة، ص 15.

[32]- المرجع نفسه، ص 15.

[33]- المرجع نفسه، ص 18.

[34]- المرجع نفسه، ص19.

[35]- محمد المبارك: استقبال النص عند العرب، ص 288.

[36]- تسعديت فوراري: المتلقي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 137.

[37]- مراد حسن فطوم: التلقي في النقد العربي في القرن الرابع الهجري، ص 45-46.